

صنع الله إبراهيم يحاكم عبدالناصر روائيا

صاحب «نجمة أغسطس»: دور المثقف نقد السلطة وإقامة مسافة معها لحفظ حرية الإبداع



في روايته الجديدة يواصل صنع الله إبراهيم مغامرة كتابة الرواية من مواد صحافية وأرشيفية تتصل بتاريخ بطله الروائي

والاجتماعية، فاي سلطة تجتبه باستمرار إلى تجسيد الوضع القائم وتثبيت أقدامها للحفاظ على نفسها، حتى لو جاءت عبر ثورة، ولا تُرى الأخطاء التي ترتكبها والأوضاع الصعبة التي يعيشها الشعب، وبالتالي تحتاج إلى من ينتقدها ويذكرها ويلفت انتباهها ويعارضها وهذا هو دور المثقف.

تحول الكاتب المصري إلى رمز للمثقف المستقل بعد أن رفض تسلم جائزة من المجلس الأعلى للثقافة بمصر عام 2003؛ احتجاجا على السياسة الثقافية، وكان على رأس المثقفين الذين قادوا اعتصاما بوزارة الثقافة في مايو 2013 احتجاجا على حكم جماعة الإخوان وتدخلها في الثقافة.

الرواية تتضمن مزيجا عجيبا ومتناغما بين اللوم والتقريع لعبدالناصر، في قضايا والمحبة المشوبة بالشفقة في قضايا أخرى، ربما لارتباطها بأفكار روائي تعرض للاعتقال لمدة خمس سنوات، بتهمة الانتماء إلى تنظيم شيوعي

تعتبر أعمال صنع الله شاهدة على عصور كاملة بمساحات كبيرة من النقد، ففي رواية "بيروت" رصد الحرب الأهلية اللبنانية، و"اللجنة" انتقد فيها سياسة الانفتاح في عهد الرئيس المصري الراحل أنور السادات، ورواية "الجليد" ترصد فترة وجوده في روسيا وتجربة النظام الشيوعي ثم سقوط الاتحاد السوفياتي، وفي "برلين 69" تقدم نظرة لأوضاع العرب في النظام الشيوعي بالضفة الشرقية من ألمانيا.

تتلاقى تجربة صنع الله مع الاشتراكية في قضية العدالة الاجتماعية التي يحاول تصديدها في جميع رواياته وتتسللت في وجدانه بفضل حكاوي والده الذي تجاوز الستين، حينما كان الكاتب طفلا في علاقة شبيهة بالجد وحفيده، فقص على مسامحة قصصا عن ثورة 1919 والاحتلال الإنجليزي، والقهر والطبقية وحفاء الفقراء، فتراكت في ذهنه حكايات عن السياسة والحركات وخبرات أقت باثرها وظلالها على شخصيته.

ختم صنع الله إبراهيم رواية "1970" بتوجيه خطاب مباشر لعبدالناصر يتهمه فيه بخذلان نفسه وخذلان الجماهير والرحيل بمقدرات الأمة وأمالها مع وفاته، وهي عبارة تحمل في أحشائها أكثر من معنى، بين الرثاء والحزن على رحيله ولومه وتحمله ومسؤولية ما وصلت إليه الأوضاع، وكان عبدالناصر كان الأمل والألم في آن واحد.

ووصلت بها إلى مشارف الطلاق. يكتفي الكاتب، حاليا، بجمع القصصات وفهرستها وتقسيمها داخل ملفات كل على حسب النوع، بدلا من الاحتفاظ بالأعداد كاملة، حتى جاءت رواية "ذات" التي صدرت عام 1992 لتعطيها بعدا جديدا يتعدى توظيفها كخلفية للقصة، بل جعل العناوين الصحافية هي القصة نفسها ساردا من خلالها الأحداث المتلاحقة وتغيرات المجتمع خلال تلك المرحلة، واعاد استخدامها أخيرا في رواية "1970".

تكسب شخصية صنع الله إبراهيم الإشكالية، رواياته رونقا من الجاذبية، فعلى مدار تاريخه لم يهادن أي نظام سياسي، وظل على يسار السلطة كما حافظ على استقلاليتها مع كل الأنظمة فلم يسع للتقرب منها، ورغم انتمائه إلى اليسار المصري، إلا أن ذلك لم يمنعه من انتقاد تنظيماته ضمن الرواية، والتي وردت بين سطورها عبارة "اليسار الطفولي... قصر النظر والحماض".

أوضح صنع الله أن اليسار كتظيم سياسي يضم فصيلا معتدلا وآخر متطرفا وثالثا متعجلا، والشيوعيون بوجه عام لا يعتنقون الفكر الإلهامي ولا ينتهجون العنف إلا حال قيام الثورة، ويرون أن اندلاعها قد يستلزم مواجهات عنيفة، لكنهم في الأوضاع العادية يؤمنون بصناعة تيار فكري داخل المجتمع قادر على الغلبة في البرلمان والحياة السياسية.

وشرح، أن اليسار قد يحتوي على مجموعة متعجلة من الشباب العصبي الذين يرغبون تغييرا فوريا، ويحملون نظرة طفولية خاصة للأوضاع، مثل المطالبة بثورة عند أي موقف، بينما لا يمكن للثورات أن تندلع إلا بعد تعبئة ودعاية وموافقة قطاع من الشعب، وهنا تكمن فكرة "اليسار الطفولي".

تتداول رواية "1970" تقديم درس ملهم للتيارات السياسية بوجه عام، مفاده أن التحولات الاجتماعية الخطيرة في أي بلد لن تقوم بواسطة شخص، وإذا حدث فإنها تكون لفترة قصيرة، وبعدها يتولى المجتمع والشعب تحقيقها عن طريق مطالبات مختلفة، وفقا للظروف العامة.

رأى الأديب المصري أن الاحتفاظ بمسافة مع السلطة مسألة مهمة للغاية، لمنحه مساحة وقدر من الحرية في الحياة والتفكير، فلم يضع نفسه موضع العوز والاحتياج بالاستغناء عن الأشياء، طالما لم تكن ذات ضرورة حيوية، وبلغ به الاستغناء حد عدم استخدام الهاتف النقال حتى الآن، ففي رأيه "لا يمارس عملا يستدعي اتصالا يوميا أو دائما بالبشر والهاتف التقليدي يقيه للتواصل مع العالم".

استقلال ثقافي

لا يزال يعتقد إبراهيم أن المثقف يجب أن "يمتلك درجة مرتفعة من الإدراك للأوضاع السياسية والثقافية



شخصية عبدالناصر تتضمن إمكانات وظروفا جديرة بالكتابة في كل وقت، لفهم أسباب قراراته المصيرية وجدلياتها، وارتباطها بمكونات شخصيته وخلجاته ومسارات طقوس حياته اليومية



بمواكبته للمزاج العام للشعوب حينها القائم على فكرة "الفرد البطل"، وانجراره بعناوين الصحف اليومية التي تصح وتحوّلها، في ظل إيمان صنع الله بعدما شهدت مصر أكثر من محاولة انقلابية سواء من بعض الضباط أو من تنظيمات أخرى.

وأكد لـ "العرب" أن روايته مناقشة وليست محاكمة لعبدالناصر الذي اعترف بعد هزيمة يونيو 1967 بوقوعه ضحية "الغرور"، بمحاولة فهم الشخصية والأسباب التي حركت مواقفها، مع نوع من التحذير المستقبلي لتجنب الوقوع في الأخطاء ذاتها وعدم ربط حياتنا ومصيرنا بشخص واحد، قد تراوده فكرة ويفغها فتقلب الأمور رأسا على عقب وتتحول تبعات أخطائه، فالرواية تحمل بين طياتها إسقاطا غير مباشر على الأوضاع الراهنة وكيفية إدارة الدولة.

تتضمن الرواية مزيجا عجيبا ومتناغما بين اللوم والتقريع لعبدالناصر، في قضايا والمحبة المشوبة بالشفقة في قضايا أخرى، ربما لارتباطها بأفكار روائي تعرض للاعتقال والحبس لمدة خمس سنوات، بتهمة الانتماء إلى تنظيم شيوعي، تعرض أعضاؤه للتفكيك والملاحقة، رغم تقديرهم لعبدالناصر كزعيم ودفاعهم عن سياساته الاقتصادية الاشتراكية، في مزاج عصية التفسير تطرح سؤالاً: كيف تدافع عن دفع بك إلى السجن؟

تلك المزاجية لم تكن قاصرة على صنع الله إبراهيم فقط، لكنها تضمنت أدباء كثيرين انتسبوا بصورة كاملة أو نسبية إلى اليسار مثل صلاح عبدالصور وعبدالرحمن الأبنودي وأحمد فؤاد نجم وفؤاد حاد، فرغم قضاء هؤلاء لفترات في سجون عبدالناصر، غير أنها لم تكن كفيلا بتغيير تعلقهم بالناصرية أو تحولهم من محبة رمزها إلى بغضه.

قيم اجتماعية

يرجع صنع الله ذلك في حوار مع "العرب" إلى القيم الاجتماعية التي رسختها فترتا الخمسينات والستينات من القرن الماضي، من ازدهار التصنيع والتنمية الاقتصادية المعتمدة على الذات، والتحرر من تبعية الخارج، وإلغاء الفروق الطبقة وإعادة توزيع الثروة التي بدأت بقوانين الإصلاح الزراعي فالتأميم، وتلك السياسات كانت جديدة على المصريين، ونقطة أفكار الشيوعيين إلى أرض الواقع.

وكانت أزمة مارس 1954 نزوة الصدام بين عبدالناصر والحركة الوطنية لتحرير الديمقراطية "حذتو" (يسارية) مطلع شبابه وذاق أغلبهم مرارة تجربة السجن والتحقوا بتجربة الاشتراكية وادفخوا عنها بعد غروبها، ومنهم صنع الله، ولا تزال تلقي بظلالها على كتاباته التي تميل إلى التركيز على طرح القضايا السياسية والاجتماعية.

يبسو الروائي الكبير، كما لو كان مدعي على عبدالناصر ومحامي له في الوقت ذاته، فتارة يلتبس له الأعداء

رواية "1970" للأديب المصري صنع الله إبراهيم الصادرة حديثا في القاهرة، تتضمن محاكمة لعصر الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر، انطلاقا من عام وفاته، مرتكزة على الجمع بين الرؤية الذاتية والسياسة والتاريخ في رسم أجواء كاملة عن الحقبة الناصرية بإنجازاتها وإخفاقاتها، بطريقة تجعل القارئ حاضرا في أجواء الحوار على السنة شخصياتها. وحول هذا العمل أجرت "العرب" معه حوارا، كشف فيه الكثير من تفاصيل رواية، متوقع أن تحدث ضجة في الوسط الثقافي والسياسي بمصر.

هبة ياسين
كاتبة مصرية



تتمتع أعمال الروائي المصري صنع الله إبراهيم بتشابك فريد بين سيرته الذاتية وانتمائه الفكرية والخط بين التاريخ والسياسة بأسلوبه الذي يميل إلى المزاجية بين المشاهد الخيلية والأحداث الحقيقية الموثقة داخل النسيج الأدبي لمنع تسلسل الملأ أو التشتت للقراء.

في روايته الجديدة "1970"، الصادرة عن دار الثقافة الجديدة، يرصد صنع الله، عام رحيل الرئيس عبدالناصر، في معالجة شبيهة بمحاكمة لعصر كامل بإنجازاته وسقطاته، جامعا بين تقنية السرديات اليومية، و"الكولاج" الوثائقي داخل النص، وتلوينه بصيغة تظهر انتماء السياسي الواضح لليسر المصري.

قال صنع الله، في الحوار الذي أجرته معه "العرب" داخل منزله في أحد الشوارع الهادئة بضاحية مصر الجديدة (شرق القاهرة)، إن شخصية عبدالناصر تتضمن إمكانات وطروفا جديرة بالكتابة في كل وقت، لفهم أسباب قراراته المصيرية وجدلياتها، وارتباطها بمكونات شخصيته وخلجاته ومسارات طقوس حياته اليومية.

وصنع الله إبراهيم، المولود في القاهرة عام 1937، يحظى بشهرة كبيرة، بفضل أعماله ذات النزعات التجريبية مثل "نجمة أغسطس"، و"تلك الراحلة"، و"التلصص"، و"ذات"، والتي تعبر في غالبيتها عن الطبقة الوسطى ومجتمع المهتمين وأمالهم وتطلعاتهم في سياق تحولات المجتمع المصري ككل على الصعيدين السياسي والاجتماعي.

رواية «1970» تناول تقديم درس ملهم للتيارات السياسية بوجه عام، مفاده أن التحولات الاجتماعية الخطيرة في أي بلد لن تتحقق بواسطة شخص، وإذا حدث فإنها تكون لفترة قصيرة، وبعدها يتولى المجتمع والشعب تحقيقها

في روايته الجديدة يقدم أبطالاً يمثلون الطبقة المتوسطة المحببة، يجاربون على الجبهة الحربية، ويعيشون في الخنادق على العس والجبن، ويمثلون المجتمع دينيا وتعليميا ومهنيا، من الحاصلين على مؤهلات عليا ومتوسطة، ومن المزارعين والمدرسين والكيميائيين والمهندسين، والمسلمين والمسيحيين، والقادمين من الحضر والريف.

أوضح صنع الله أنه ظل مترددا في كتابة رواية "1970" حتى الحث عليه الفكرة، وقرر تنفيذها بعد سنوات من الانتظار كانت ضرورية له، لكتابة الرواية التاريخية تتطلب مرور مساحة كافية من الزمن للحكم على الأوضاع والأشخاص، والوصول للإدراك التام للأحداث والوقائع، واكتشاف معلومات مخفية وغير معلنة في حينها.

تلمس الرواية التي تتوالى أحداثها بين المدح والهزاء والمزايا والعيوب، فمفتاح شخصية عبدالناصر، وجوانبها المتصارعة، مثل اعتداده بنفسه واستبداده وقضائله وإنجازاته ومزاياه وغيوبه وربطها بجرع غائر في نفسه خلفه رحيل والدته التي كانت تجمعها بها علاقة وطيدة، والصدمة التي تلقاها بعدما أخفوا خبر وفاتها عنه حتى زار بلدته بعد سنوات، ففوجئ بوالده متزوجا من أخرى ولديه أطفال منها.